دورُ الاستشراقِ في سردِ الثَّوراتِ في العالَمِ العربيّ[1]

■ ترجمة: د. إبراهيم الفيضا[3] ■ لوريا فنتورا[2]

ملخّص

يتناولُ هذا النص ترجمةً لدراسة بعنوان «دور الاستشراق في سرد الثورات في العالم العربي» للباحثة (لوريا فنتورا- Loria Ventura)؛ حيث تفكّك الكاتبة السرديّة الغربيّة المهيمنة عن ما سُمِّي بـ"الربيع العربي"، مبيّنةً كيف أنّ هذه السرديّة تُعيد إنتاج أنماط استشراقيّة تقليديّة ترى العالم العربي من منظور جامد، متخلّف، واستبدادي، وتُسقِط عليه مفاهيم جاهزة كالديمقراطية والحداثة.

تجادلُ الكاتبةُ أنّ تصوير الثورات على أنّها موجة ديمقراطيّة موحدة يتجاهل الفوارق الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة بين الدول، ويختزل الظواهر المعقدة في ثنائية "استبداد/حرية" أو "تقليد/حداثة". كما تُبيّن كيف أنّ الخطاب الغربي يُجنّد رموزًا مثل المرأة أو التكنولوجيا (الهواتف الذكيّة، وسائل التواصل) لدعم هذا التأطير الحداثي.

ترتكز الدراسة على مفهوم الاستشراق كما طوّره (إدوارد سعيد)، وتدعو إلى إعادة النظر في هذه السرديات لصالح قراءات أكثر واقعيّة ووعيًا بسياقات السلطة والمعرفة. وتُظهر أيضًا كيف تُستعمل مفاهيم مثل "الاستبداد الشرقي" و"الحداثة" لتبرير التدخلات السياسيّة والعسكريّة الغربيّة.

الكلمات المفتاحية: الاستشراق، الربيع العربي، الحداثة، الاستبداد الشرقي، الإعلام الغربي، الديمقراطيّة، التعميم الثقافي.

---

1 - Lorella Ventura (2016): The "Arab Spring" and Orientalist Stereotypes: The Role of Orientalism in the Narration of the Revolts in the Arab World, Interventions, Sapienza University of Rome, Italy.

٢ - جامعة سابينزا في روما.

٣ - د.ابراهيم الفيضا، أستاذ محاضر بالكلية المتعددة التخصصات بالناظور المغربية، دكتوراه في الأدب والدراسات الإنجليزية.

مقدمة

لقد جـرى في الغربِ تقويمُ الثوراتِ التـي قامتْ في العالَمِ العـربيّ، باعتبارِهَا بزوغَ فجرٍ جديـد في المنطقة؛ وجـرى اعتبارُهاَ ثوراتِ الشُّـعوبِ ضدَّ حكوماتٍ مسـتبدَّة، وأنَّها تحرُّكٌ «عربيٌّ» عامٌّ نحوَ الدَّمقرطةِ (democratization). وعليه، جرى دعمُها بشكلٍ عامٍّ من طرفِ وسائلِ الإعلامِ، والمعّلقينَ، والرأيِ العامّ الغربيّ، وحتَّى من قِبَلِ التَّدخلِ العسكريّ الغربيّ في بعضِ الحالاتِ. وبمرورِ الوقت، أُضيفتْ بعضُ الفروقِ والانتقاداتِ إلى هذه النَّظرةِ البسيطةِ والمبسَّطةِ للغاية، والتي تعقَّدتْ مؤخّرًا بظهورِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ في العراقِ والشَّامِ (اختصارا: داعشISIS). يجبُ إخضاعُ فكرةِ "الحُلمِ" التي تهدفُ إلى "إعادةِ تشـكيلِ المنطقةِ إلى نظامٍ جديدٍ، والتي تدعمُها ضماناتٌ قانونيَّةٌ ودسـتوريَّةٌ، ومزيدٌ من المسـاواةِ الاقتصاديَّةِ، وعدالةٍ اجتماعيَّةٍ أوسعَ"[1] لمزيدٍ من البحثِ والتَّقصيّ. في كثيرٍ من الحالاتِ، بدتِ الثَّوراتُ وكأنَّها معاركُ للسّيطرةِ على السُّلطةِ، التي لم تكنْ تحظى دائمًا بالدَّعمِ الشعبيّ، والتي ما تزالُ غاياتُها بحاجةٍ إلى إثباتٍ. ومعَ ذلكَ، فإنَّ تصويرَ موجةٍ كبيرةٍ منَ التَّغييرِ الدّيمقراطيّ وتمثُّلِه، كانَ وما يزالُ يمثّلُ الموجةَ المهيمنةَ على الرَّغمِ من تعرُّضِها لـ "الخيانةِ" في بعضِ الحالاتِ من طَرَفِ القُوى المعاديةِ للثَّورةِ.

سـأقدّمُ في هذا المقالِ تأمُّلاً يستندُ إلى دراسـةٍ موجزةٍ للملامحِ والبنيةِ الرَّئيسةِ للتَّمثُّلِ الغربيّ لـ "الرَّبيعِ العربيّ"، تُسهمُ في تفسيرِ استمرارِه، والنَّظرِ إليهِ منْ منظورٍ مختلف. سأبيّنُ أنَّ الأفكارَ والصُّورَ الرَّئيسةَ المتعلّقةَ بتفسيرِ الثَّوراتِ العربيَّةِ من قِبَلِ وسائلِ الإعلامِ الغربيَّةِ (وحتى العربيَّة)، باعتبارِها "ربيعًا عربيًّا" أو "ثورةً عربيَّةً"، وهي مرتبطةٌ بوجهةِ نظرٍ يمكنُ تعريفُها بسهولةٍ على أنَّها

1 - McMurray, David, and Amanda Ufheil-Somers: "Introduction." In The Arab Revolts: Dispatches on Militant Democracy in the Middle East, p. 11.

"اســتشراقٌ"، وفقًا لتعريف (إدوارد ســعيد). إنَّ الفكرةَ التي تقولُ إنَّ هناكَ صيرورةً تشملُ عددًا مِنَ الــدُّولِ العربيَّةِ المختلفة، التي تحكمُها أنظمةٌ "ســلطانيَّةٌ" والتي يُنظَــرُ إليها على أنَّها تُبقي المجتمعَ والاقتصادَ في حالةِ ركودٍ تامّ، على ســبيلِ المثال، يمكنُ أن تُعزى إلى المقاربةِ والنَّهجِ الاستشراقيّين، والصُّورِ النَّمطيَّةِ، مثلَ صورِ "العربِ" بشكلٍ عامّ، أو "الاستبداد الشَّرقيّ"، ويمكنُ إرجاعُها إلى الفكرةِ القائلةِ إنَّ الغربَ هو المقياسُ الوحيدُ لـ "الحداثة" و"التَّقدُّم". ويمكنُ القولُ في هذا الخصوص إنَّــه ينبغي إعادةُ النَّظرِ في الخطابِ كُلّه، عن طريقِ التَّوسُّــلِ بمنهجيَّةٍ نقديَّةٍ أشملَ، عِوَضَ النَّظرِ إلى الجوانبِ الفرديَّةِ مِنْ سرديَّةِ "الرَّبيعِ العربيّ".

تهدفُ إعادةُ النَّظرِ هذه إلى إزالةِ الغموضِ عَنِ التَّفسيرِ السَّائدِ لـ "الرَّبيعِ العربيّ"، قصدَ التَّرويجِ لتفسيرٍ أقلَّ أيديولوجيَّةً، وأيضًا لمساعدتنا على إدراكِ أنَّ هناكَ حاجةً إلى معرفةٍ أوسعَ بواقعِ الدُّولِ العربيَّةِ متعدّدِ الأوجُهِ وعلاقاتِها بالغرب. لا يمكنُ تجاوزُ الاســتشراقِ والتَّمركزِ الغربيّ بسهولة؛ ومعَ ذلكَ، ينبغي للمواطنينَ الغربيّينَ أنْ يســعَوا إلى أنْ يكونوا أكثرَ اطّلاعًا، وأنْ يتَّخذوا قراراتٍ بشــأنِ الحربِ والتَّدخلِ العسكريّ، على مقتضى الوعيِ المطلوبِ في الأنظمةِ الدّيمقراطيَّةِ، معَ مزيدٍ من الاحترامِ للشُّعوبِ المتضرِّرَةِ مِنْ تلكَ القراراتِ.

أولًا: الاستشراقُ والتّعميمُ بشأنِ «العربِ» على نحوٍ عامّ

وفقًا لمرويَّةِ (إدوارد سعيد) الكلاسيكيَّة، فإنَّ «الاستشراقَ»هو النَّظرَةُ الغربيَّةُ لـ «الشَّرق»، وهي نظــرةٌ متمركزةٌ عرقيًّا وجوهرانيَّةٌ (essentialist)، ومتأثّرةٌ بعمقٍ بالاســتعمارِ والامبرياليَّة. يتجاهلُ الاســتشراقُ السّياقاتِ التَّاريخيَّةَ الملموســةَ، وينتجُ صورًا مجرَّدةً و«أسطوريَّةً» لـ «الشرقيّينَ» ولـ «الآخر» على وجهِ العموم. ويُعَدُّ الميلُ إلى التَّعميم، والافتقارُ إلى الاعتباراتِ النَّقديَّةِ والتَّاريخيَّة، من أبرزِ علاماتِ النَّظرةِ الاستشراقيَّةِ تجاهَ العالَمِ غيرِ الغربيّ. يتناولُ (سعيد) التَّعميماتِ المتعلقةَ بالعــربِ على وجــهِ الخصوص، عندما ينظــرُ في الروايــاتِ والتَّعليقاتِ عن العقلِ والشَّــخصيَّةِ العربيّين[1]. ويشــيرُ إلى أنَّ الحديثَ بشكلٍ عامّ عَنِ العقلِ العربيّ، أو نفسيَّةِ العربيّ، أو المجتمعِ العــربيّ، يعني إهــمالَ التَّاريخِ الحديــثِ للــدُّوَلِ العربيَّة، وحقيقــةَ أنَّ العربَ يشــكّلونَ ملايينَ

1 - Said, Edward: "Shattered Myths." In Middle East Crucible: Studies on the Arab–Israeli War of October 1973, p. 412.

الأشــخاصِ[1] الذينَ يعيشــونَ في بلدانٍ تكونُ في بعضِ الأحيانِ بعيدةً عن بعضِها بعضًا، وليسَ فقط بالمعنى الجُغرافيّ.

ينبغي أن يكونَ واضحًا على الفورِ أنَّه لا يمكنُ مناقشــةُ «المجتمعِ العربيّ» في الواقعِ؛ لأنَّ العــربَ يعدُّونَ قرابة مئةِ مليونِ شــخصٍ، وما لا يقلُّ عن اثني عَــشَرَ مجتمعًا مختلفًا، ولا توجدُ طريقةٌ فكريَّةٌ فعَّالةٌ لمناقشتِهَا جميعًا باعتبارها وحدةً متجانسةً واحدةً. إنَّ أيَّ اختزالٍ لهذه الكتلةِ الهائلةِ من التَّاريخِ والمجتمعاتِ والأفرادِ والواقعِ، واختصارِها بـ«المجتمعِ العربيّ» يُعَدُّ خرافةً.[2]

يلاحظُ (سعيد)، فضلاً عنْ ذلكَ، أنَّ هذا الصّنفَ منَ المقولاتِ، وهذهِ المنهجيَّةَ في التَّناولِ، لا يمكــنُ قَبولُها عندما تتناولُ أيَّ شــعْبٍ أو أيَّ إثنيةٍ أُخرَى؛ لأنَّهُ ليسَ كافيًا الاستشــهادُ ببعضِ الدّراساتِ التي تولّدُ الشُّعورَ بأنَّها تخوّلُ الحديثَ عنْ شخصيةِ الملايينِ منَ الأفرادِ الذينَ يعيشونَ في بلدانٍ مختلفةٍ. إنَّ ميلَ الاســتشراقِ إلى التَّجريدِ والتَّعميمِ، ميلٌ قويٌّ بشكلٍ لافتٍ، ويصعُبُ تجاوزُهُ في مجالِ الدّراساتِ العربيَّةِ والدّراساتِ الإسلاميَّةِ.

المستعربونَ ودارسو الإسلامِ همُ فقطْ الذينَ يعملونَ دونَ مراجعةٍ. بالنّسبةِ لهم، ما تزالُ هناكَ أشياءُ منْ قبيلِ «المجتمعِ الإسلاميّ»، و«العقلِ العربيّ»، و«النَّفسيَّةِ الشَّرقيَّةِ». فحتَّى أولئكَ الذينَ يتخصَّصونَ في العالَمِ الإسلاميّ الحديثِ، يتوسَّلونَ، بشكلٍ مفارقٍ، بنصوصٍ مَثلِ القرآنِ، لتناولِ أيّ وجهٍ منْ وجوهِ المجتمعِ المصريّ أو المجتمعِ الجزائريّ. يُفترَضُ أنَّ الإسلامَ، أو مثالَهُ الأعلى في القرنِ السَّابعِ، الذي تمَثَّلَهُ المستشرقُ، يمتلكُ الوحدةَ التي تستعصي على التَّأثيراتِ الحديثةِ، والأكثرِ أهميَّةً: للاستعمارِ والإمبرياليَّةِ، وحتَّى السّياسةِ العاديَّةِ. إنَّ الكليشيهاتِ عن كيفَ يتصرَّفُ المسلمونَ (أو «المحمَّديُّونَ» كما يُسمَّونَ أحيانًا) التي صارتْ متداولةً، تلوكُها الألسنَةُ بلا مبالاةٍ، لنْ يخاطرَ أحدٌ بالتَّوسُّلِ بها عندَ الحديثِ عنِ السُّودِ أو اليهودِ.[3]

هذه قضيَّةٌ مهمَّةٌ، ولأنَّ (سعيدًا) يعتبرُ أنّ الصلةَ بينَ الإيديولوجيا وعلاقاتِ القوَّةِ/السُّلطةِ، صِلةٌ صلبةٌ، فإنَّهُ يشدّدُ على العلاقةِ بينَ خصوصيَّةِ النَّظرِ الإستشراقيّ للعالَمِ العربيّ والإسلاميّ،

---

١ - بحسب معطيات البنك الدولي المتاحة لعام ٢٠١٤م، بلغ عدد سكان العالم العربي والذي يضم ٢٢ دولة ومنطقة ناطقة باللغة العربية حوالي ٣٨٥,٣ مليون نسمة.(http://www.data.worldbank.org/region/ARB).

2 - Said, Edward: “Shattered Myths.” In Middle East Crucible: Studies on the Arab–Israeli War of October 1973: p.410.

3 - Edward Said: Orientalism. London: Penguin, p. 302.

وبـينَ المصالحِ الغربيَّـةِ القويَّةِ فيه. عندما يقولُ (سـعيدٌ) إنَّه من "الواضـح" أنَّ "الظروفَ التي تجعلُ من الاسـتشراقِ نمطًا مقنعًا منَ الفكرِ على أنَّها سـوفَ تسـتمرُّ"[1]، فإنَّهُ يشيرُ إلى الوضعِ الذي أنتجَ "الأسـاطيرَ المعتمدةَ للاستشراقِ"[2]، وهي: الاستعمارُ، والامبرياليَّةُ، وسطوةُ الغربِ على وجهِ العموم. إنَّ الطريقةَ الاستشراقيَّةَ في التَّفكيرِ طريقةٌ ممكنةٌ؛ لأنَّ الغربَ هو الذاتُ التي تـدرُسُ وتَتَحدَّثُ عن موضوعِهَا: "الشَّرقِ" المدرُوسِ والمُتحدّث عنه. وفقًا لـ(سـعيد)، يمكنُ للاستشراقِ، في هذه الحالةِ، أنْ يبنيَ أسطورةً، على غرارِ جميعِ الأساطيرِ: "وهي بنيةٌ قائمةٌ على مجموعةٍ من التَّناقضاتِ البسيطةِ، التي تميّزُ الاستشراقَ عن باقي أشكالِ المعرفةِ الإنسانيَّةِ. وهذا هو الاختزالُ الرَّئيسُ؛ فمن ناحيةٍ هناكَ الغربيُّونَ، ومنْ ناحيةٍ أخرى هناكَ الشَّرقيُّونَ؛ فالغربيُّونَ (من دونِ نظامٍ معينٍ) عقلانيُّونَ، ويجنحونَ إلى السّلمِ، وليبراليُّونَ، ومنطقيُّونَ، وقادرونَ على الإتيانِ بقيمٍ حقيقيَّةٍ والاحتفاظِ بها، من دونِ أيّ شكٍّ طبيعيّ أو انعدامِ ثقةٍ وما إلى ذلكَ، أمَّا الشَّرقيُّونَ، فليسوا من هذه الطّينةِ".[3]

يعـرّفُ الغـربُ «الحديثُ» نفسَـهُ من خـلالِ التَّعارضِ مـعَ «الآخرِ»، أو من خـلالِ اعتبارٍ مجـرَّدٍ للعالَمِ غيرِ الغربيّ، فوفقَ هذا النَّمطِ، تُبنَى صورةُ «الآخرِ» من خلالِ التَّناقضِ معَ الغربِ، الذي يمثّلُ الـذاتَ والمركزَ المهيمنَ. وبهذهِ الطَّريقةِ يجـري تهميشُ «الآخرِ»، ويجري تجاهلُ الاختلافاتِ والفروقِ الدَّقيقةِ، لصالحِ وجهةِ نظرٍ ثنائيَّةٍ: أبيضَ أو أسودَ، ولصالحِ مقاربةٍ تبسيطيَّةٍ.

إنَّ تصويرَ الثَّوراتِ الأخيرةِ في العالَمِ العربي باعتبارها موجةَ تغييرٍ كبيرةٍ، يُعَدُّ مثالاً على هذا التَّعميمِ. تسـاعدُ اعتباراتُ (سعيد) عن أنماطِ الاسـتشراقِ في التَّأكيدِ على أنَّهُ على الرَّغمِ من أنَّ الثَّوراتِ حدثتْ في فترةٍ زمنيَّةٍ قصيرةٍ، واحدةً تلوَ الأُخرى، وأنَّ أبطالَهَا استعملُوا الشّعاراتِ نفسَها (الحريَّةُ وسقوطُ «النّظامِ»)، والأساليبَ (مثلَ استخدامِ الأنترنتِ والهواتفِ الذّكيَّةِ)، فإنَّ اعتبارَها ثـورةً واحدةً يعني تبنّـي وُجهةِ نظرٍ مجرَّدةٍ تقلّـلُ من الاختلافاتِ الحقيقيَّةِ بـينَ مختلفِ الدُّولِ العربيَّةِ وتُطَبّعُها (neutralises). في الواقعِ، يمكنُ ملاحظةُ أنَّه إذا كانَ من الممكنِ وصفُ القرنِ العشرينِ بكونِهِ قرنَ نموِّ القوميَّةِ العربيَّةِ، فمن ناحيةٍ أُخرى، كانَ هناكَ أيضًا نموٌّ للقوميَّةِ المحليَّةِ

1 - Edward Said: Orientalism. London: Penguin, p. 326.

2 - Edward Said: Orientalism. London: Penguin, p. 412.

3 - Edward Said: Orientalism. London: Penguin, pp. 413-414.

(كما هو حالُ لبنانَ على سبيلِ المثال)، وتمايزٌ في عدد منَ الدُّولِ التي أصبحتْ أكثرَ تماسكًا. يجبُ وضعُ فكرةِ أنَّ البلدانَ المختلفةَ لديها نوع المشكلات نفسها موضعَ تساؤل، نظرًا لاختلاف هـذه الدُّولِ في المجالات الاقتصاديَّة، بما في ذلكَ توزيعُ الثَّروة، وفي هياكلِها الاجتماعيَّة وفي انقساماتِها الطَّائفيَّة والقَبَليَّة الدَّاخلية (بوضع مثالي ليبيا وسوريا موضعَ اعتبار). تبدو المظاهراتُ والشّعاراتُ جميعُها، عندَ مشاهدتِها، على أنَّها متشابهةٌ وتشتركُ في نفسِ الأهداف، ولكنْ، بالنَّظرِ إلى الاختلافاتِ العميقة، - سواءٌ الاجتماعيَّة أم السياسيَّة وحتَّى الثَّقافيَّة - بينَ الدُّولِ العربيَّة، فمنَ الصَّعبِ جدًّا تصديقُ تمثُّلِ ثورةٍ عربيَّةٍ واحدة.

في الواقع، ليستْ كلُّ المرويَّاتِ/السَّرديَّاتِ والتَّفسيراتِ التي تناولتْ تلكَ الثَّوراتِ تعمّمُ تلكَ المسألة، ولكنْ عادةً ما تكونُ متشابهةً. تقترحُ (أندرسون -Anderson) - على سبيلِ المثال - مقاربـةً أكثرَ حذرًا فيما يخصُّ الاختلافاتِ بينَ الدُّوَلِ العربيَّة المرتبطةِ بتلكَ الثَّوراتِ، وترفضُ التَّعميـمَ والانصيـاعَ لإغراءِ «التَّعاملِ معَ الثَّـوراتِ العربيَّة على أنَّها حركـةٌ واحدةٌ». فمن خلالِ مناقشتِها للثَّوراتِ في تونسَ ومصرَ وليبيا، لاحظتْ أنَّ «أنماطَهَا الاحتجاجيَّةَ وتركيبتَها السُّكانيَّةَ تباينـتْ على نطاقٍ واسـع»، وأضافتْ أنَّ «القضيَّةَ الحاسـمةَ هي كيفَ ولمـاذا كانَ لطموحاتِ المتظاهرينَ وتقنياتِهم صدىً في سياقاتِهم المحليَّةِ المختلفة». وعلى الرَّغم من أنَّ تلكَ الثَّوراتِ تشـتركُ في دعوةٍ مشتركةٍ إلى الكرامةِ الشَّـخصيَّةِ والحكومةِ المتجاوبة، لكنَّها عكستْ، في هذه البلـدانِ الثَّلاثة، مظالمَ اقتصاديَّـةً وديناميكيّاتٍ اجتماعيَّةً متباينةً، هي نتيجـةٌ لإرثِ لقاءاتِها معَ أوروبَّا الحديثة، وعقودٍ في ظلّ أنظمةٍ فريدةٍ من نوعِها.[1]

وبالتَّالي، ترفضُ فكرةَ «العربِ عامَّةً»، وتلاحظُ الفروقَ بينَ هذه البلدانِ الثَّلاثة. ومعَ ذلكَ، إذا كانَ صحيحًا أنَّ الأوضاعَ في هذه البلدانِ الثَّلاثةِ مختلفةٌ تمامًا، ولا توجدُ أرضيَّةٌ مشـتركةٌ بينها، فهل يبقى من المنطقيّ الحديثُ عن «دعوةٍ مشتركة»؟

يمكنُ اعتبارُ العاملِ الدّينيّ أساسًـا لمثلِ هذه التَّعميماتِ. فعلى سبيلِ المثالِ، يشيرُ (يوسف

1 - Anderson, L.: "Demystifying the Arab Spring: Parsing the Differences between Tunisia, Egypt, and Libya", Foreign Affairs, May/June.

http:// www.foreignaffairs.com/articles/67693/lisa anderson/demystifying-the-arab-spring.

محمد الصَّواني) إلى أنَّ «الرَّبيعَ العربيَّ» كانَ يبشّرُ - في الواقع - بأنَّهُ «ولادةُ عروبةٍ حديثة»[1]، أو «عروبةٌ جديدةٌ»، وهي نتيجةُ ارتباطٍ «لا ينفصلُ بينَ العروبةِ والإسلام»، تعكسُ «روحًا ثوريَّةً عربيَّةً قوميَّةً مناقضةً لأولئكَ الذينَ أعلنوا أنَّ العروبةَ قد ماتتْ»[2]. من هذا المنظور، يبدو أنَّ الدّينَ عاملُ توحيدٍ قويٍّ، وتعتبرُ حركاتُ «السَّلفيّينَ المدعومينَ من السُّعوديَّة... الناشطينَ في مصرَ وتونسَ وسوريا» حركاتٍ «متماسكةً؛ لأنَّها توفّرُ أيديولوجيا شديدةَ التَّبسيطِ والتي تستهدفُ مستوىً معيَّنًا من المتعلّمينَ والطَّبقاتِ الاجتماعيَّة»[3]. يمكنُ أن تكونَ الإسلامويَّةُ[4] أساسًا للتَّعميم؛ لأنَّها منظَّمةٌ ومنتشرةٌ عَبْرَ الدُّولِ العربيَّة (وإن بدرجاتٍ متفاوتة). ومعَ ذلكَ، ففي التَّفسيراتِ والمرويَّاتِ الغربيَّةِ عنِ «الرَّبيعِ العربيّ»، نادرًا ما ينصبُّ التركيزُ على الدّينِ والإسلامويَّة. ويمكنُ القولُ إنَّ أحدَ أسبابِ ذلكَ يكمنُ في حقيقةِ أنَّ الأساسَ للمرويَّةِ الغربيَّةِ عن «الرَّبيعِ العربيّ»، كما سأبيّنُ، هو فكرةُ أنَّ «الحداثةَ» والدّينَ - ولاسيَّما الإسلامويَّةَ - لا يتناسبانِ معَها.

كانتِ الأرضيَّةُ المشتركةُ الوحيدةُ التي أكَّد عليها الجميعُ هي حقيقةُ أنَّ جميعَ الدُّولِ العربيَّةِ المعنيَّةِ كانَ لديها، أو كانَ من المفترضِ أن يكونَ لديها، حكومةً «مستبدَّةً» أرادوا التخلُّصَ منها. هذه هي الرّسالةُ التي نقلَتها ادعاءاتُ المتظاهرينَ. ومعَ ذلكَ، فإنَّ هذه الفكرةَ أيضًا تبدو وكأنَّها تعميمٌ؛ لأنَّ الحكوماتِ والأنظمةَ لم تكنْ جميعُها متشابهةً، وذلكَ ما يجعلُها فكرةً مرتبطةً بـ «أسطورةِ» الاستشراقِ الكلاسيكيَّةِ، أي فكرةِ «الاستبدادِ الشَّرقيّ».

ثانيًا: فكرةُ «الاستبداد الشَّرقيّ» ورجعيتُها

إنَّ فكرةَ الشَّرقِ الذي يتَّسمُ بنوعٍ خاصٍّ منَ الاستبدادِ هي سمةٌ من سماتِ التَّمثُّلِ الغربيّ للشَّرقِ، والتي يعودُ تاريخُهَا إلى الإغريقِ،[5] فبعدَ تطوُّرٍ طويلٍ وصياغاتٍ مختلفةٍ للمصطلحِ،

1 - Sawani, Y. M.: "The 'End of Pan-Arabism' Revisited: Reflections on the Arab Spring": p. 394.

2 - Sawani, Y. M.: "The 'End of Pan-Arabism' Revisited: Reflections on the Arab Spring": p. 395.

3 - Sawani, Y. M.: "The 'End of Pan-Arabism' Revisited: Reflections on the Arab Spring": p. 385.

٤ - لقد وضعنا مصطلح «الإسلاموية» مقابل المصطلح الأجنبي الانجليزي (Islamism) كما هو شائع ومفضل عند بعض العلمانيين الغربيين والعرب. واستعماله هنا على مدار المقال لا يفيد أي معنى سلبي. (المترجم).

5 - Venturi, F: "Oriental Despotism", p. 133.

بلوَرَ (مونتسكيو - Montesquieu) الوصفَ الحديثَ عنِ "الاستبدادِ الشَّرقيّ" في مؤلّفه روحُ الشَّرائعِ (Esprit des lois)، الأمرُ الذي يستحقُّ دراسةً استقصائيَّةً موجزةً؛ لأنَّ ملامحَهُ الرَّئيسةَ ما تزالُ قيدَ الاستخدامِ.

بالنّسبةِ لـ (مونتسكيو) [في المجلد الأول من عمله المعروف، الاستبدادُ سمةٌ من سماتِ الإمبراطوريَّاتِ الشَّرقيَّة، ولوصفه استخدمَ أمثلةً معظمُها من تركيا وبلادِ فارسَ والهندَ (المغول) وروسيا[1]. وهو يعتقدُ أنَّ مبدأَ الحكمِ الاستبداديِّ هوَ الخوفُ،[2] وأنَّ القانونَ في الدَّولةِ الاستبداديَّةِ ليسَ إلا «إرادة الأمير المؤقَّتة»[3]. والحكومةُ الاستبداديَّةُ، في الواقعِ، هي «تلكَ التي يوجّهُ فيها شخصٌ واحدٌ ويديرُ كلَّ شيءٍ وفقَ إرادته ونزواته.»[4] وبتعبيرٍ آخرَ، تُدارُ الدَّولةُ بشكلٍ تعسُّفيّ تمامًا. لا يخفّفُ الدّينُ حدةَ هذا التَّعسُّف، على الرَّغمِ منْ أنَّ (مونتسكيو) يلاحظُ أنَّ الدّينَ في بعضِ الأحيانِ يحدُّ، في الواقعِ، منْ سلطةِ الأميرِ؛ لأنَّ قوانينَ الدّينِ «ذاتُ طبيعةٍ عليا؛ لأنَّها تُلزمُ كلًّا من السّيادةِ والرَّعايا»[5]. يعملُ الدّينُ على تقويةِ سلطةِ الأميرِ؛ لأنَّهُ «الخوفُ مضافًا إلى الخوفِ»، وفي «الدُّولِ المحمَّديَّة، يستقي النَّاسُ منَ الدّينِ تعظيمُهُم الغريبَ الذي يُكنُّونَه للأميرِ».[6]

فوفقَ مرويَّةَ (مونتسكيو)، فإنَّ فكرةَ الاستبدادِ ليستْ مرتبطةً فقطْ بالقسوةِ، ولكنْ كذلكَ باعتباطيَّةِ السُّلطةِ وتعسُّفها، والتي لا تنبني على «قوانينَ طبيعيَّةٍ» وحقوقٍ من قبيلِ الحرّيَّةِ الشَّخصيَّةِ وحقوقِ الملكيَّة. وعليه، تبدو غيرَ «طبيعيَّة»، وتنبني على مفارقة[7]. في الجَدَلِ الأوروبيّ عن الاستبداد، كانَ الفرقُ بينَ السُّلطةِ «التَّعسُّفيَّةِ» والسُّلطةِ «المطلَقَةِ» مهمًّا للغاية؛ لأنَّ هذه الأخيرةَ كانتْ ما تزالُ شائعةً في أوروبا، وكانَ يُنظَرُ إليها على أنَّها تُعَدُّ سلطةً شرعيَّةً، تقومُ على احترامِ الحقوقِ الطَّبيعيَّةِ التي تعني حمايةَ الفردِ ضدَّ سلطةِ الأميرِ. وعلى النَّقيضِ منْ ذلكَ، لا توجدُ حمايةٌ للشَّعبِ في «الاستبدادِ الشَّرقيّ» ضدَّ إرادةِ السُّلطانِ، الذي لا يهتمُّ بشعبِه، ولا

1 - Montesquieu. "The Spirit of Laws", p. 88.
2 - Montesquieu. "The Spirit of Laws",p. 83.
3 - Montesquieu. "The Spirit of Laws", p. 94.
4 - Montesquieu. "The Spirit of Laws", p. 11.
5 - Montesquieu. "The Spirit of Laws", p. 40.
6 - Montesquieu. "The Spirit of Laws", p. 86.
7 - Kaiser, T.: "The Evil Empire? The Debate on Turkish Despotism in Eighteenth-Century French Political Culture", pp. 12–13.

حتَّى ببلده؛ لأنَّ «الحفاظَ على الدَّولة ليسَ إلا الحفاظ على الأمير، أو بالأحرى على القصر الذي يُحتجَزُ فيه»[1]. فضلاً عنْ ذلكَ، فإنَّ حقيقةَ أنَّ الأميرَ يمتلكُ كلَّ شيءٍ تُخنقُ «التَّنميةَ الاقتصاديَّةَ»، بحيثُ تتحوَّلُ البلادُ إلى «صحراءَ»:

«لا يُصلَحُ شيءٌ ولا يُحَسَّنُ في ظلّ هذا النوعِ منَ الحكومة؛ تُبنى المنازلُ فقطْ لضرورةِ السَّكنِ، ولا يوجدُ حفرٌ للخنادقِ، ولا غرسٌ للأشجارِ؛ كلُّ شيءٍ يُستمَدُّ من الأرضِ؛ الأرضُ لا تُحرَثُ وتتحوَّلُ البلادُ إلى صحراءَ».[2]

تعكسُ الصُّورةُ المؤثّرةُ التي رسمَهَا (مونتسكيو) بعضَ الآراءِ المنتشرةِ في عصرِه، وتستندُ إلى مرويَّاتٍ وتقاريرَ بعضِ الرَّحالةِ المشهورينَ، مثلَ مرويات (تافرنييه- Tavernier) و(ريكو - Rycaut) و(شاردن- Chardin). ومعَ ذلك، جرى انتقادُ آرائه بعدَ صدور كتابه؛ باعتبارهَا تقومُ على معرفةٍ سطحيةٍ للغاية، وحتَّى متحيّزةٍ اتّجاهَ الدُّول الشَّرقيَّة.[3] لاحظَ (فولتير- Voltaire)، على سبيلِ المثال، أنَّ عددًا منَ الأمراءِ الأوروبيّينَ كانوا أكثرَ استبدادًا من السُّلطان، وأنَّ معرفةً أفضلَ بآسيا من شأنِهَا أنْ تُظهرَ أنَّهُ يوجدُ في العالَمِ استبدادٌ أقلُّ ممَّا يُعتقَدُ عمومًا.[4] قامَ (أنكتيل دوبرون- Anquetil-Duperron)، المستشرقُ المعروفُ، والذي تَرجمَ الـ (زند أفيستا -Zend Avesta)، بتحليلِ شكلِ الإمبراطوريَّاتِ الإسلاميَّة، وأوضحَ أنَّ الحُكَّامَ المسلمينَ في الواقعِ لا يمكنُهُم الحكمُ بشكلٍ تعسُّفيّ، بحيثُ كانَ عليهم الامتثالَ للشَّرعِ (law). وكما أوضحَ (فينتوري- Ventur)، كان (دوبرون- Dobron) يعتقدُ أنَّ "مفهومَ الاستبداد قد جُعلَ ببساطة أداةً لتبرير الاضطهادِ والقمعِ الذي مارسَهُ الأوربيُّونَ في آسيا"[5].[6] وعلاوةً على ذلكَ، أظهرَ (دوبرون) أنَّهُ

---

1 - Montesquieu (1985) 1773, Vol. 1, p. 85.

2 - Montesquieu (1985) 1773, Vol. 1, p. 86-87.

٣ - لقد صدرت في الغرب، منذ مطلع الألفية الجديدة، العديد من الدراسات الاكاديمية التي تتناول هذه القضية بالذات تناولاً نقدياً. (المترجم)

4 - Voltair : Essai sur les moeurs et l'esprit des nations et sur les principaux faits de l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XIII, pp. 835-836.

5 - Venturi, F.: "Oriental Despotism." Journal of the History of Ideas 24 (1): pp. 137–138.

٦ - صدر هذا النص في مخطوطة (دوبرون) Le Despotisme consideré dans les trois états ou il (passe pour être le plus absolu, la Turquie, la Perse et l'Indoustan التي نقحت في نسختها المطبوعة والمزيدة لعام ١٧٧٨.

في الإمبراطوريّـات الشَّرقيَّة كانتْ هناكَ قوانينُ، وحقوقُ ملكيَّـة، واقتصادٌ مزدهرٌ، وعقودٌ آمنةٌ؛ وكانتْ هذه مسـألةً مهمَّةً للغايةِ في فترةِ انتشـارِ الرَّأسـماليَّةِ الحديثةِ والاسـتعمارِ. وفي الواقعِ، فإنَّ الافتقارَ إلى حقوقِ الملكيَّةِ في الإمبراطوريَّاتِ الشَّرقيَّةِ يمكنُ أنْ يُبرّرَ السّياسـةَ الاستعماريَّةَ المتمثّلةَ في الاسـتيلاءِ على الأراضي من ناحيةٍ، كما يمكنُ أنْ تُسـاهمَ في تشكيلِ صورةِ الشَّرقِ على أنَّهُ يحكمُ بشـكلٍ من أشـكالِ السُّـلطةِ، والبِنيةِ الاجتماعيَّةِ، والتَّنظيمِ التي تعودُ لـ «القرونِ الوُسطى».

فعلى الرَّغمِ من الانتقاداتِ، بعد ما يقرُبُ من ثلاثةِ قرونٍ، لم تتغيَّرِ الصُّورةُ كثيراً. تظلُّ الصُّورُ المرتبطةُ بـ «الاستبدادِ الشَّرقيّ» كما حدَّدها (مونتسكيو) في القرنِ الثَّامنِ عَشَرَ حيَّةً: أي باعتبارِهَا سلطةً تعسُّفيَّةً تركّزُ على إرادةِ الأميرِ ومصلحتِه، والذي لا يهتَمُّ ببلدِه، الذي يتحوَّلُ إلى صحراءَ. تكونُ الإشـارةُ إلى هذه الصُّورةِ في بعضِ الحالاتِ واضحةً؛ يذكرُ (غولدستون- Goldstone)، على سـبيلِ المثالِ، أنَّهُ يجبُ التَّمييزُ بينَ ثوراتِ عامِ ٢٠١١ عنْ تلكَ التي حدثتْ في أوروبا في عامي ١٨٤٨ و١٩٨٩، لأنَّها تناهضُ «الدّكتاتوريَّةَ السُّلطانيَّةَ»[1]. يُعَدُّ هذا التعريفُ مثيرًا وهادفًا للغايةِ. فالأنظمةُ «السُّـلطانيَّةُ» تنشـأُ عندما يوسّعُ زعيمٌ وطنيٌّ سـلطاتِه الشَّخصيَّةَ على حسابِ المؤسَّساتِ الرَّسميَّةِ. لا ينشدُ السَّلاطينُ الدّكتاتوريونَ أيَّ أيديولوجيا، وليسَ لديهم أيُّ غايةٍ سوى الحفاظِ على سلطَتِهمُ الشَّـخصيَّةِ»[2]. وللقيامِ بذلكَ، يحتاجونَ إلى تركيزِ ثروةٍ كبيرةٍ في أيديهم «قصـدَ شراءِ ولاءِ المؤيّدينَ ومعاقبةِ المعارضينَ»[3]. وقد يتسـاءلُ المرءُ: لمـاذا منَ الضرَّوريّ التَّوسُّلُ والإشارةُ إلى صورةِ السُّلطانِ لوصفِ الطُّغاةِ، وخاصَّةً حكَّامَ الدُّولِ العربيَّةِ، معَ أنَّهُ ليسَ هناكَ توافقٌ بينَ سلاطينِ الماضي وهذه الصُّورةِ المجرَّدةِ، أو معَ وصفِ الحُكَّامِ العربِ في الآونةِ

1 - Goldstone, Jack A.: "UnderstandingtheRevolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next , p. 329.

2 - Goldstone, Jack A.: "UnderstandingtheRevolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next , pp. 330-331.

3 - Goldstone, Jack A.: "UnderstandingtheRevolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next , p. 331.

الأخيرة؟ إذا لم تكنْ هذه معطيات ومعلومات تاريخيَّة، فما الَّذي تضيفُهُ فكرةُ أو صورةُ «السُّلطان» إلى هذا الوصف؟ يمكنُ الافتراضُ أنَّها تضيفُ ارتباطًا بالصُّورة النَّمطيَّة لـ «الاستبداد الشَّرقيّ»، التي جرى انتقادُهَا لقرون خلَتْ بسبب افتقارِهَا إلى المصداقيَّة التَّاريخيَّة.

ومعَ ذلكَ، ليسَ منَ الضَّروريّ الإشارةُ بشكلٍ صريحٍ إلى السَّلاطين لاقتراح هذه الصّلة؛ حيثُ يكفي التأكيدُ على بعض جوانب وصف «الطُّغاة» الفعليّينَ، من قبيل ربط مصير الدَّولة ومصالح شخصٍ واحد، وإفقار الشَّعب. إنَّ التَّشديدَ على هذه السّمات، بصرف النَّظر ما إذا كانتْ تتوافقُ مع الواقع، يُعطي انطباعًا بأنَّ مجموعةً من العبيد تخضعُ لإرادة الحاكم التَّعسُّفيَّة، والذي يعملُ على إبقاء البلاد في حالة ركود اقتصاديٍّ عميق وانحطاط خُلُقيّ. وبالتَّالي، فإنَّ الإشارةَ إلى صورة «الاستبداد الشَّرقيّ» تستلزمُ، إلى جانب الخوف والقسوةُ التي تعتبرُ من سمات الحكومات الاستبداديَّة والدّيكتاتوريات بشكلٍ عامّ، صفةٌ ضمنيَّةٌ أُخرى هي صورةُ التَّخلُّف. يبدو أنَّ هذا هو المفهومُ الأساس. في الواقع، أحدُ الجوانب المهمَّة لفكرة «الاستبداد الشَّرقيّ» هو الصّلةُ والارتباطُ بالعالَم الإقطاعيّ وسلطته «القديمة» التي عفا عنها الزَّمنُ، في مقابل العالَم «الحديث»، وبغضِّ النَّظر ما إذا كانتْ بلدانُ المنطقة العربيَّة تعكسُ جوانبَ من ميّزات الدُّول «الحديثة»، وفقًا للتَّمثُّل الغربيّ لها، فإنَّها تبدو مُتكلّسةً في الماضي «السُّلطانيّ»، ولهذا السَّبب تبدو متحجّرةً.

يمكنُ لهذه الاعتبارات أنْ تساهمَ في تفسير سبب حصول تلكَ الاحتجاجات ضدَّ الحكومات على موافقة الرَّأي العامِّ الغربيِّ ودعمه بشكلٍ تلقائيّ. عادةً ما يحتاجُ هذا إلى تبرير؛ لأنَّه ليسَ كلُّ التَّغييرات حَسَنَةٌ وديمقراطيَّةٌ بشكلٍ عامٍّ، وعلى فَرَض أنَّ المرءَ يدعمُ التَّدخُّلَ العسكريَّ الغربيَّ ويؤيّدُهُ بشكلٍ عامّ، فليسَ كلُّ معارضة للحكومات (وإنْ كانتْ حكومات سيّئة) تستحقُّ الدَّعمَ بتدخُّلٍ عسكريٍّ أو توفير الأسلحة. يمكنُ اعتبارُ حقيقة تقديم هذا الدَّعم دونَ طرح كثيرٍ منَ الأسئلة، وعدم إثارة ردود فعلٍ سلبيَّة في الرَّأي العامّ الغربيِّ، مَظهرًا من مظاهر طريقة التَّفكير «الأسطوريَّة» المشتركة والسَّائدة، والتي بموجبها يُجري تقديمُ الحرب ضدَّ الحكومات التي تُعتَبَرُ «استبداديَّةً» على الطريقة «الشَّرقيَّة»، على أنَّها حربٌ «عادلةٌ». وفي هذا الإطار وعلى العكس منْ ذلكَ، يمكنُ تصويرُ أكثر الحكومات استبدادًا على أنَّها ليست استبداديَّةً، من خلال إظهار أنَّها ليستْ متحجّرةً. يمكنُ تفسيرُ حجة (غولدستون) التي تهدفُ إلى استبعاد المَلَكيَّات العربيَّة من مجموعة الدُّول «السُّلطانيَّة»، وحتَّى تلكَ الدُّول التي «يمكنُ أنْ تنهارَ بسرعةٍ في مواجهة

الاحتجاجات واسـعة النّطاق»، على أنَّها مثالٌ على هذا النَّهجِ، لأنَّها تقومُ على حقيقةِ أنَّ «بِنيَتَها السّياسيَّةَ مَرِنَةٌ».[1]

ثالثًا: التَّوسُّلُ بفكرة «الحداثة»

يرتكزُ الخطابُ الاسـتشراقيُّ على فكرةِ الشَّرقِ المتجانسِ والجامدِ في مقابلِ الغربِ المتقدّمِ والنَّشِطِ؛ حيثُ إنَّ التعريفَ الذَّاتيَّ للغربِ على أنَّهُ «حديثٌ» يأتي من خلالِ التَّناقضِ معَ «الشَّرقِ» ويقتضيه. في الخطابِ الاستشراقيّ، تمثّلُ «الحداثةُ» التقدُّمَ بامتيازٍ ومِنَ المُفترضِ أنْ تكونَ غايةً تاريخيَّةً بالنّسبةِ لتلكَ المناطقِ مِنَ العالَمِ التي تتطلَّعُ إليها.

وفـق هذا النمطِ، يبدو أنَّ الثَّوراتِ العربيَّةَ قد فُهِمَتْ مِنْ طرفِ الرَّأيِ الغربيِّ على أنَّها ليسـتْ مجـرّد محاولاتٍ للتَّحديـث، ولكنْ باعتبارها نوعًا مـنَ «القفزِ» إلى الأنسـاقِ الغربيَّةِ وأنظمَتِها القيَميَّةِ. تبدو المعركةُ ضدَّ السُّلطةِ الاستبداديَّةِ المتَّصفةِ بـ «القدَمِ» تحرُّريَّةً بشكلٍ تلقائيّ (إنْ لَم تكنْ ديمقراطيَّةً بالضَّرورةِ) و«حداثيَّةً» وتقدُّميَّةً؛ لأنَّها جلبتِ الحركةَ؛ حيثُ كانَ من المفترضِ أن يكـونَ هناكَ جمودٌ فقط. وبالتَّالي، تتَّصفُ بكلِّ ما يُعتبرُ غربيًّا. يمكنُ العثورُ على فكرةِ التَّخلُّصِ مـنْ جمودِ الماضي الذي يمكنُ تجاوزُهُ، على سـبيلِ المثالِ، في تصريحاتِ (هيلاري كلينتون-Hillary Clinton)، في حفـلِ العَشـاءِ الذي أُقيمَ احتفالاً بمنتدى العالَمِ الإسـلاميّ والولاياتِ المتَّحـدةِ، الـذي أُقيمَ عامَ ٢٠١١م، حينَ طرحتْ سـؤالاً حولَ "مـا إذا كانَ النَّاسُ في المنطقةِ [سـوف] يستفيدونَ إلى أقصى حدٍّ منْ هذه اللَّحظةِ التَّاريخيَّةِ أو سيعودونَ إلى حالةِ الرُّكودِ"[2]. وهذا ما سيحدّدُهُ تبنّيهم لـ «روحِ الإصلاحِ» وقدرتُهُم على الاستجابةِ «للتَّحدّيَاتِ الأكثرِ إلحاحًا في المنطقةِ، منْ قبيلِ تنويعِ اقتصادها وفتحِ أنظمتها السّياسـيَّةِ ومحاربةِ الفسـادِ واحترامِ حقوقِ جميعِ مواطنيها، بما في ذلكَ حقوقُ النّسـاءِ والأقليَّاتِ»[3]، والولاياتِ المتَّحدةِ ستكونُ حاضرةً

1 - Goldstone, Jack A.: "UnderstandingtheRevolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next , p. 338.

2 - Hillary Clinton: "Remarks at the Gala Dinner Celebrating the US–Islamic World Forum", p. 479.

3 - Hillary Clinton: "Remarks at the Gala Dinner Celebrating the US–Islamic World Forum", p. 479.

هناكَ باعتبارها شريكًا تعملُ من أجلِ تقدُّمِ المنطقة.[١]

تعمــلُ صورةُ التَّعارضِ بين التَّحديــثِ والرُّكودِ جزءًا من بناءِ الصُّورةِ الغربيَّةِ عنِ الشَّرقِ أيضًا بشكلٍ غيرِ مباشرٍ، على سبيلِ المثالِ، في وصفِ (فرانشيسكا دي شاتيل- Francesca DeChâtel) لمســألةِ تدبيرِ المياهِ في ســوريا (٢٠١٤)؛ إذ تصفُ «نظامَ إدارةِ المياهِ» بكونِه غيرَ فعَّالٍ وفاسدٍ، ويجري بالصَّلابةِ، ما تسبَّبَ في الاستغلالِ المُفرطِ للمياهِ والمواردِ على نطاقٍ واسعٍ، ما نتجَ عنهُ تزايــدُ الفقرِ وتهميشُ المجتمعاتِ الرَّيفيَّة»[٢]. كما تصفُ الحكومةُ بكونِها «تخلُقُ الانطباعَ بأنَّها ملتزمةٌ بـ «التَّحديث»[٣]؛ ولكنَّها في الواقعِ تظهرُ في هذا الصَّددِ «عدمُ قدرتِهَا على الإصلاحِ»[٤]. وبالتَّالي، ليســتِ «التَّغــيُّراتُ المناخيَّةُ في حدّ ذاتِهــا» هي التي أثارتِ احتجاجاتِ السُّــوريينَ؛ لقد كانَ الأمرُ يعودُ - بحســبِها - إلى «فشــلِ الحكومةِ السُّــوريَّةِ في التَّكيُّفِ معَ الواقعاتِ البيئيَّةِ والاقتصاديَّةِ والاجتماعيَّةِ المتغيّرة»[٥].

تبرزُ أيضًا صورةُ العالَمِ العربيِّ التي جرى تضمينُها أخيرًا في «تاريخنا» عندَ فحصِ الجهاتِ الفاعلةِ والرَّئيســةِ في الثَّوراتِ التي احتفتْ بها وســائلُ الإعلامِ. فهؤلاءِ الفاعلينَ، مثلُ المدوّنينَ والطُّلَّابِ الشَّبابِ والنّساء، يُعتَبَرونَ منَ «الأبطالِ المعاصرينَ» الذينَ لا يبدو أنَّهم يختلفونَ كثيرًا عنْ نُظرائِهمُ الغربيّينَ؛ لأنَّهم غالبًا ما يســتخدمونَ أشــياءَ مثلَ الهواتفِ الذَّكيَّةِ ووسائلِ التَّواصلِ الاجتماعيّ. وهكذا، توصَفُ معاركُهُم بأنَّها «حديثةٌ» ومعاديةٌ للتَّقليدِ وحتَّى مســالمةٌ. يعزّزُ هذا الجانبُ «الشَّبابيُّ» والتّكنولوجيُّ للانتفاضاتِ فكرةَ هذه الثَّوراتِ باعتبارِها قائمةً على التَّعارضِ بين التَّقليدِ والحداثةِ. ومعَ ذلكَ، منَ الواضحِ أنَّ هذا مجَّردُ انطباعٍ، إن لم يكنْ انطباعًا «أسطوريًّا».

---

1 - Hillary Clinton: “Remarks at the Gala Dinner Celebrating the US–Islamic World Forum”, p. 479.

2 - De Châtel, F: “The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution”, p. 529.

3 - De Châtel, F: “The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution”, p.529.

4 - De Châtel, F: “The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution”, p.532.

5 - De Châtel, F: “The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution”, p.522.

إنَّ استخدامَ التّقنيات الحديثة ووسـائلِ التّواصلِ الاجتماعيّ، بغضِّ النّظر عن دورها المتصوَّر في الثّورات، لا يُعتَبَرُ ضمانًا للأفكار «الحديثة»، ولا يُعتَبَرُ تعزيزًا للحداثة والدّيمقراطيّة الغربيّين. يُظهرُ -مثالاً- القاعدة وداعش (ISIS) بوضوحٍ أنَّ التّمكُّنَ منَ التّقنيّات البصريّة وإتقانَها، وبشكلٍ عامّ، وتمكُّنَها من وسائلِ الاتّصال الجديدة، يمكنُ أنْ تتعايشَ معَ وجهاتِ نظرٍ «تقليديّة» وحتّى معاديةٍ للحداثة، وفيما يتعلّقُ بالحقوق وعلاقات القوّة. علاوةً على ذلكَ، إنَّ استخدامَ الإنترنت لا يُسـاوي دائمًا حرّيّةَ التّعبيرِ وحريّةَ الفكرِ، ومقاطعَ الفيديو ليست دائمًا مساويةً للحقيقة؛ لأنَّه يمكنُ التّلاعبُ بالصُّوَر.

إنَّ أفضـلَ مثالٍ عـلى السَّردِ الغربيّ لــ «لرَّبيعِ العـربيّ» المبنيّ على التّناقـضِ المجرَّد بينَ «الحداثـة» والتخلُّف العامّ للعالَمِ العربيِّ والإسـلاميّ ونواقصه هو مسـألةُ حقوقِ المرأة. يُعتَبَرُ هذا الموضوعُ منَ المواضيعِ التي تُسـتَخدَمُ عادةً لإظهارِ تخلُّفِ الدُّول العربيّة والإسلاميّة، من وجهةِ نظرٍ استشراقيّةٍ وعرقيّة؛ حيثُ جرى تصويرُ الثّوراتِ العربيّة على أنّها مناسبةٌ للمرأة العربيّة للحصولِ على حقوقٍ شـبيهةٍ بحقوقِ المرأة في الغرب. ولكنَّ حقيقةَ أنَّ وسائلَ الإعلامِ الغربيّة، جعلـتْ منَ الثّوراتِ العربيّة قضيّةَ نوعٍ اجتماعيّ (جندريّة)، وحتّى انتصارًا كبيرًا لحقوقِ المرأة، يدلُّ على نهجها الاستشراقيّ.

فلقد أوضـحَ الباحثُ (أرشـاد- Arshad)، لم يكنِ الرَّبيـعُ العربيُّ "قضيّةً قائمـةً على النَّوعِ الاجتماعـيّ، ومعَ ذلكَ، فإنَّ من سـعى إلى تعريـفِ النَّوعِ الاجتماعيّ في تصـوُّرِ "الغربِ" هو قضيّةُ حقوقِ المرأة".[1] ومعَ ذلكَ، ما يزالُ بإمكاننا القولُ، كما يفعلُ (أرشـاد)، إنَّ الانتفاضاتِ العربيّةَ كانتْ نقطةَ تحوُّلٍ وعملاً مهمًّا بالنّسبةِ للمرأة، على الأقلّ من حيثُ وجودها وظهورها:

«فمـن خلالِ تحدّي القواعدِ الأبويّـة، أدّى ظهورُ هؤلاءِ النّسـاءِ وبروزُهُنَّ المرئيُّ إلى تحوُّلٍ نموذجيّ في النّقاشِ عن المرأةِ في الشّرقِ الأوسـطِ؛ حيثُ أصبحنَ يتحدَّثنَ عن أنفسـهنَّ، ولم يصبحْنَ هنَّ أنفسُهنَّ موضوعًا للحديث».[2]

فحتّى أكثرَ الرّواياتِ انتصارًا لهذه المسألة، يجبُ أنْ تأخذَ في الاعتبارِ تعقُّدَ الواقعِ، وأنْ تسألَ عمّا تسعى إليه النّساءُ في البلدانِ العربيّةِ فعليًا بشكلٍ عامّ، وفي هذا الوضعِ الخاصّ. وهذا ما أقرَّ

1 - Arshad, S: "The Arab Spring: What did it do for Women?", p.110.

2 - Arshad, S: "The Arab Spring: What did it do for Women?", p. 111.

به (أرشاد)، الذي أشارَ إلى أنَّ «النّساءَ في هذا السّياق لا يمثّلنَ مجموعةً متجانسةً، بل إنَّ لديهنَّ أهدافًا وطموحات متنوّعةً، بل أحيانًا متناقضةً»، على الرَّغم من أنَّهنَّ «يأملنَ جميعًا في أنْ تتاحَ لهنَّ الفرصةُ للتَّعبيرِ عن شواغلهنَّ ومطالبهنَّ العديدة».[1] هذا فضلاً عَنْ أنَّه تجدرُ الإشارةُ إلى أنَّ ظهورَ المرأةِ ومشاركتَهَا لا يمكنُ اعتبارُهُ علامةً على «التَّقدُّم» (بالمعنى الغربيّ) وبروزِ عصرٍ جديد. على سبيلِ المثال، تميَّزتِ الثَّورةُ الإيرانيَّةُ أيضًا بمشاركةٍ واسعةٍ للنّساء، عزَّزتْ صورةُ النّساءِ المحتجَّاتِ قضيَّةَ ثوراتِ «التَّحديث» في نظرِ الرَّأيِ العامّ الغربيّ.

في الواقع، احتجَّتِ النّساءُ العربيَّاتُ، إلى جانبِ أزواجهنَّ وأقاربهنَّ من الذُّكور، إلى حدٍّ كبير، ضدَّ حكَّامهنَّ من أجلِ تغييرِ النّظام؛ حيثُ وُصِفنَ بأنَّهنَّ يرتدينَ رداءً أسودَ وغاضبات، مشكّلاتٍ بحرًا من الوجوهِ النّسائيَّةِ في عواصمِ شمالِ أفريقيا وشبهِ الجزيرةِ العربيَّةِ والمناطقِ النَّائيةِ في سوريا، يسرنَ من أجلِ تغييرِ النظام، ووضعِ حدٍّ للقمع، وإطلاقِ سراحِ أحبَّائهنَّ».[2]

إنَّ حقيقةَ أنَّ الهدفَ منَ الاحتجاجاتِ التي شاركتْ فيها النّساءُ لم يشملْ قضايا النَّوعِ الاجتماعيّ، بما في ذلكَ المشاركةُ السّياسيَّةُ، وأنَّ بروزَهنَّ يتوافقُ معَ الوضعِ الفعليِّ للدُّولِ العربيَّة، يُفصِحُ عنْ أنَّ الزَّعمَ الذي يطالبُ بحقوقِ المرأةِ على أساسِ حقوقِ المرأةِ الغربيَّةِ ليسَ منتشرًا جدًّا بينَ النّساء. إنَّ النَّاشطينَ والنَّاشطاتِ منْ أجلِ حقوقِ المرأةِ الذينَ ناضلوا، بالكادِ يمثّلونَ كتلةَ النّساءِ العربيَّات. لقد حصلَ الكثيرُ منَ التَّقدُّمِ في مجالِ حقوقِ المرأةِ في العالَمِ العربيّ نتيجةَ إعلاناتٍ وتحرُّكاتٍ منَ السُّلطةِ العليا، وليسَ نتيجةً لضغوطٍ «منَ الأسفل». لقد كانتْ قضيَّةً مهمَّةً للنُّخَبِ، وهوايةً لزوجاتِ الرُّؤساء؛ وما أُعطيَ باليدِ اليُمنى يمكنُ أنْ يُؤخذَ باليدِ الأُخرى.[3]

لهذا السَّبب، كما يشيرُ المقالُ، جرى النَّظرُ إلى «لغةِ حقوقِ المرأة» أثناءَ الانتفاضاتِ في مصرَ بعينِ الرّيبة، «واعتبرَها بعضُهم مستورَدَةً من الغرب» ومرتبطةً بعهدِ (مُبارَك). يساعدُ مثالُ حقوقِ المرأةِ على إظهارِ أنَّه لا النّضالُ ضدَّ الحكوماتِ العربيَّةِ، ولا عُمْرُ الجهاتِ الفاعلةِ وأساليبُها في

1 - Arshad, S: "The Arab Spring: What did it do for Women?", p. 115.

٢ - إن صورة المرأة العربية «ذات الرداء الأسود» تعتبر بالطبع تمثلا نمطيا؛ في هذا السياق، يبدو أنه يشير إلى أنه حتى النساء المسلمات كن مشاركات في الاحتجاجات. (Guardian ٢٢ April ٢٠١٢)

3 - The Economist, 15 October 2011.

الاحتجاج، تُعَدُّ علامات قاطعةً على التَّوجُّه التَّقدميّ والحديث. وعلى النَّقيض منْ ذلكَ، شاركت الحكوماتُ العَلمانيَّةُ وانخرطتْ، في معظم الدُّول العربيَّة، في تحقيق تحديث المجتمع، كما يُنظَرُ إليه من وجهة نظر غربيَّة؛ وبالتَّالي، وبالرَّغم منْ سيادة تلكَ المرويَّة، سيكونُ من الصَّعب التأكيدُ على أنَّ تراجعَ الحكوماتِ العَلمانيَّةِ سوفَ يؤثّرُ على المجتمعِ على نحوٍ «تقدُّميّ».

رابعًا: أسطورةُ الدّيمقراطيَّة:

يمكنُ العثورُ على الطَّابع الأسطوريّ ذاته لمرويَّة «الرَّبيع العربيّ» فيما يتعلَّقُ بالدّيمقراطيَّة، التي تُعَدُّ منْ أهمِّ سمات النَّظرة الغربيَّة للحداثة وذروتها. ويُعتَقَدُ عمومًا أنَّ الاحتجاجات العربيَّةَ كان لها تطلُّعٌ ديمقراطيٌّ. على سبيلِ المثال، جرى تعريفُ «الرَّبيع العربيّ» في الموسوعة البريطانيَّة على النَّحو الآتي:

«موجةٌ من الاحتجاجات والانتفاضات المؤيّدة للدّيمقراطيَّة التي اندلعتْ في الشَّرق الأوسط وشمال أفريقيا ابتداءً من عامي ٢٠١٠ و٢٠١١، متحديَّةً بعضَ الأنظمة الاستبداديَّة الرَّاسخة في المنطقة».[1]

في الواقع، لا توجدُ عناصرُ كافيةٌ لإثبات هذه الفكرة؛ فعندَ النَّظر إلى الشّعارات الرَّئيسة للاحتجاجات، وليسَ تصريحات بعض الشَّخصيَّات ومقابلاتهم (وهم أقلّيَّةٌ صغيرةٌ) فحسب، يمكنُ ملاحظةُ أنَّها تركّزُ على «الحريَّة» و«إسقاط النّظام». ومعَ ذلكَ، يمكنُ القولُ إنَّ المطالبةَ بالتَّحرُّر منْ طاغية، أو حتَّى إجراءُ انتخابات جديدة، لا تعني بالضَّرورة المطالبةَ بالدّيمقراطيَّة. وحتَّى عندَ الأخذ بالكلمة المفتاحيَّة الأُخرى، أي «ثورةٌ»، التي كانت دائمًا على عناوين الأخبار في القنوات العربيَّة مثلَ «العربيَّة» و«الجزيرة»، يمكنُنا أن نلاحظَ أنَّ «الثَّورة» عادةً لا تُعتَبَرُ ضمانًا على تحوُّل ديمقراطيٍّ قادم.[2]

يتحدّثُ (عبدُ القادر عبدُ العالي) بدلاً من ذلكَ عن «الانتقال من الاستبداد»، ويشيرُ إلى دور هذا المفهوم المهمّ في المساعدة على تجاوز وجهات النَّظر الاستشراقيَّة، القائلة باستحالة تحقُّق

1 - Encyclopaedia Britannica online (http:// www.britannica.com(

2 - Abdelali, A.: "Wave of Change in the Arab World and Chances for a Transition to Democracy" , p. 200.

الدّيمقراطيَّةِ في العالَمِ الإسلاميّ والعربيّ. ولكنْ، حتَّى هذه الفكرةُ القائلةُ، بإمكان اعتبار الثَّورات انتقالاً منَ الاستبداد وتحوُّلاً عنهُ إلى شيءٍ أقلَّ سلطويَّةً (وإنْ لم يكنْ ديمقراطيًّا بعدُ)، تظلُّ فكرةً يجبُ إثباتُها؛ إذْ إنَّ المطالبةَ بالتَّحرُّرِ من حكومةٍ «استبداديةٍ» لا تعني بالضَّرورةِ أنَّ النّظامَ القادمَ سوفَ يكونُ أقلَّ استبدادًا.

يعكسُ التَّحولُ منْ توصيف «الدّيمقراطيّ» إلى «الأقلّ استبدادًا» نزعةَ التَّعليقاتِ الغربيَّةِ، التي يبدو في كثيرٍ من الأحيانِ أنَّها تَقبَلُ، أو حتَّى تعزّزُ، اختزالَ الدّيمقراطيَّةِ إلى مجرَّدِ جهازٍ رسميٍّ، أهمُّ جانبٍ فيهِ هو أنَّ منْ لديهِ غالبيَّةُ الأصواتِ يتولَّى السُّلطةَ، حتَّى لو كانَ فاسدًا أو سُلطويًّا بالنّهايةِ. على سبيلِ المثالِ، نجدُ في ملاحظاتِ (غولدستون) عن ما يمكنُ توقُّعُهُ بعدَ سقوطِ «السَّلاطينِ» فكرةَ أنَّهُ في الثَّلاثينَ عامًا الماضيةِ لم تأتِ بعد أي سلطانٍ مخلوعٍ «حكومةٌ مسوقةٌ أيديولوجيًّا أو متطرّفةً»، وأنَّهُ في كلّ حالةٍ، كانتْ النَّتيجةُ ديمقراطيَّةً معيبةً، عادةً ما تكونُ فاسدةً وعُرضةً للميولِ الاستبداديَّةِ، ولكنَّها تكونُ غيرَ عدوانيَّةٍ وغيرَ متطرّفةٍ».[1] تهدفُ هذهِ الملاحظةُ إلى طمأنةِ القرّاءِ بشأنِ الانتصارِ الانتخابيّ للإخوانِ المسلمينَ في مصرَ. إنَّ دورَ الإخوانِ المسلمينَ لن يتلاءمَ بسهولةٍ معَ سرديَّةِ الدّيمقراطيَّةِ. قبلَ انتصارِهم، كانَ المعلقّونَ منشغلينَ بإعطاءِ تأكيداتٍ للجمهورِ الغربيّ بأنَّهُ كانَ «ذكيًّا للغايةِ، وواقعيًّا للغايةِ، وحذرًا للغايةِ، لإهدارِ سمعتِهِ المكتسبةِ بشقّ الأنفسِ بينَ المصريينَ باعتبارهِ فاعلاً سياسيًّا مسؤولاً، أو شكّلَ خطرَ انقلابٍ عسكريٍّ، من خلالِ محاولةِ الاستيلاءِ على السُّلطةِ من تلقاءِ نفسِهِ».[2] عُرِفَ الإخوانُ المسلمونَ بأنَّهم «ما بعدَ إسلاميّينَ»، وحركةٌ «ما بعدَ الإسلامِ»، بحسبِ (بيات- Bayat)، لا تُفيدُ «بأنَّها حركةٌ معاديةٌ للإسلامِ أو عَلمَانيَّةٌ»، ولكنْ بالأحرى «تعتنقُ الدّينَ، ولكنَّها أيضًا تؤكدُّ على حقوقِ المواطنين. إنَّما تطمعُ في مجتمعٍ نقيٍّ وتطمحُ إليهِ ضمنَ دولةٍ ديمقراطيَّةٍ».[3]

النظرةُ العامَّةُ الآنَ عنِ الإخوانِ المسلمينَ مختلفةٌ بطبيعةِ الحالِ؛ ومعَ ذلكَ، تبقى بعضُ النّقاطِ والملاحظاتِ قائمةً. ففي استجوابٍ معَ (غولدبيرغ- Goldberg) يعودُ لفبراير عام ٢٠١٤م،

1 - Jack A. Goldstone: "Understanding the Revolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies", pp. 340-341.

2 - Carrie Rosefsky Wickha: "The Muslim Brotherhood After Mubarak: What the Brotherhood is and How it will Shape the Future", p. 96.

3 - Bayat, A: "The Post-Islamist Revolutions: What the Revolts in the Arab World Mean".

تؤكّـدُ (هيلاري كلينتون) بأنَّ «الثورةَ في سـاحة التَّحرير لم تكنْ ثورةً للإخوان المسـلمينَ؛ ولم يكنْ يقودُها الإسـلاميُّونَ، إنَّما التحقوا بها متأخّرينَ جدًّا»، وعندما سُـئِلَتْ عَنْ مَنْ «سيترشَّـحُ للمنصـب»، أدركـتْ أنَّ هناكَ مجموعتـينِ منظَّمتينِ اثنتـينِ فقطْ، لا ثالثَ لهما هما: العسـكرُ والإخوانُ المسـلمونَ. لذلكَ قالتْ إنَّهُ علينا تطبيقُ «الدَّرسِ القديـم، وهوَ أنَّهُ لا يمكنكَ هزيمةُ شـخصٍ ما دونَ وجودِ شـخصٍ آخرَ». وبالتَّالي، «فـالفرصةُ الحقيقةُ... لإنشاءِ بديلٍ ديمقراطيٍّ مصريّ» جرى إضاعته. هذا مضافًا إلى أنَّ الإخوانَ المسلمينَ أضاعوا «الفرصةَ العظيمةَ لإظهارِ إمكانيَّاتِهم باعتبارِهم حركةً إسـلاميَّةً تتولَّى مسـؤوليَّةً للحكم»؛ لأنَّهم كانـوا «غيرَ جاهزينَ بما يكفي، وغيرَ قادرينَ على تحقيقِ الانتقالِ من حركةٍ إلى تحمُّلِ المسؤوليَّة».[1]

تتـماشى تصريحاتُ (كلينتون) مـعْ مرويَّةِ الثَّـورةِ الدّيمقراطيَّة، ومعَ الانتخـابِ القريبِ مِنَ «المصادفة» للإخوانِ المسلمينَ بعدَ الثَّورة، وأخيرًا المفاجأةُ على عدمِ مقدرةِ الحركةِ على مواصلةِ دورِهَا القياديّ. ومعَ ذلكَ، فإذا كانتْ هذه هيَ الصُّورةُ حقًّا، فإنَّها تُظهِرُ سـذاجةً في الحكمِ على ما كانَ يحدثُ، وفي اعتقادِهَا كذلكَ بأنَّ النَّاسَ في ميدانِ التَّحريرِ وبعضِ المدوّنينَ كانوا يمثّلونَ جُلَّ الشَّـعبِ المصريّ. وكما أوضحَ (برادلي- Bradley)، فإنَّ «أيًّا ما كانتْ نظريَّةٌ ما ستؤولُ إليهِ الدَّمقرطةُ في العالَمِ العربيّ الجديدِ وما ستنتجُهُ، فالتَّاريخُ ما قبلَ هذه الثَّوراتِ واضحٌ بكلّ جلاءٍ؛ فحيثما استُحدثَتِ الدّيمقراطيَّةُ، يكونُ الإسلاميُّونَ هم المستفيدونَ.»[2] فهذا ليسَ صحيحًا على الأرجحِ، وليسَ كذلكَ في كلِّ الحالاتِ الممكنةِ، ولكنْ باعتبارِهِ جزءًا من التَّجربةِ، يبدو أنَّه يكونُ معتَبَرًا على ذلكَ النَّحوِ وبشكلٍ مسبق.

في سـياقِ ما ذُكِرَ أعلاه، تأمَّلْ - على سـبيلِ المثال - ردَّ الفعلِ على اكتشـافٍ أُعلنَ عنهُ العامَ الماضي، بأنَّ أحدَ القياديّينَ البارزينَ في حركةِ أحرارِ الشَّـام - وهيَ من الجماعاتِ التي يدعمُهَا الغربُ في مواجهةِ الرَّئيسِ السُّوريّ (بشَّارِ الأسد) - كانتْ لهُ صلاتٌ وثيقةٌ بتنظيمِ القاعدة. أوَّلًا، لم يؤثّرْ هذا على السَّرديَّةِ المرتبطةِ «بالرَّبيعِ العربيّ» (ما يُعدُّ دليلًا إضافيًّا على طبيعتِهِ الأسطورية).

1 - Goldberg, J:" Hillary Clinton: 'Failure' to Help Syrian Rebels Led to the Rise of ISIS." The Atlantic– Interview, August 10. http://www.theatlantic.com/ international/archive/2014/08/ hillary-clinton-failure to-help-syrian-rebels-led-to-the-rise-of-isis/375832

2 - Bradley, J. R: "After the Arab Spring: How Isla mists Hijacked the Middle East Revolts", p. 14.

علاوةً على ذلكَ، استغلَّ مُعلّقونَ بارزونَ وصانعو سياساتٍ هذه المناسبةَ لتقديم ما وصفوه بـ «السّياساتِ الإجراميَّةِ لنظامِ الأسد»[1] على أنَّها لا تقلُّ فظاعةً، وربما تفوُّقُ، أفعالَ تنظيمِ القاعدة؛ وطرحوا سؤالاً عامًّا عن «ضرورةِ التَّحلّي بالمرونةِ العَمَليَّاتيَّة» تجاهَ الجبهةِ الإسلاميَّة، معتبرينَ أنَّها «تمثّلُ الأملَ الأفضلَ في سوريا لهزيمةِ تنظيمِ داعش (ISIS) ودحره». وفي هذه الحالة، فإنَّ القضيَّةَ لا تتعلَّقُ مباشرةً بالدّيمقراطيَّة؛ ومعَ ذلكَ، تُظهرُ هذه الاعتباراتُ ما يمكنُ التَّضحيةَ به باسمِ حُجَجٍ وأسبابٍ تُعَدُّ - في هذا السّياق - أكثرَ أهميَّةً من الدّيمقراطيَّةِ واحترامِ حقوقِ الإنسان، وهي تتمثَّلُ هنا في إسقاطِ نظامِ (الأسد) وهزيمةِ داعش.

إنَّ الانفتاحَ على تقديمِ تنازلاتٍ؛ فيما يخصُّ تعريفَ الدّيمقراطيَّةِ وتنفيذِها؛ في سياقِ «الرَّبيعِ العربيّ» والاكتفاءِ باختزالِها إلى مجرَّدِ سلطةٍ شكليَّةٍ في يدِ الأغلبيَّة؛ لا يأخذُ في الاعتبارِ حقيقةَ أنَّ الدّيمقراطيَّةَ الغربيَّةَ نظامٌ مُعقَّدٌ يقومُ على حقوقِ الأقليَّاتِ وعلى مبدأِ تحقيقِ التَّوازنِ بينَ السُّلطِ المختلفة. وبناءً عليه، فهي ليستْ نظامًا يمكنُ ارتجالُهُ أو تطبيقُهُ بشكلٍ عفويٍّ. كما أشارَ (مونتسكيو)، على سبيلِ المثال، في ملاحظاتِه حولَ الحكومةِ «المعتدلة» : «إنَّ إقامةَ حكومةٍ معتدلةٍ تقتضي ترتيبَ السُّلطاتِ وتنظيمَهَا وتعديلَهَا وجعلَهَا تسيرُ، ومنحَ إحداهَا من الوزنِ ما تقاومُ به الأُخرى، ويُعَدُّ هذا من بدائعِ الاشتراعِ ما يندُرُ صُدورُهُ عن المصادفة، وما يندُرُ أن يُترَكَ صنعُهُ لذوي الحكمة، وعلى العكسِ، يتَّضحُ أمرُ الحكومةِ المستبدَّةِ لكلّ ذي عينين، فهي نمطيَّةٌ في كلِّ مكان، وبما أنَّهُ لا يُحتاجُ إلى غيرِ الأهواءِ في إقامتِهَا، فإنَّ جميعَ العالَمِ صالحٌ لها».[2]

تشيرُ ملاحظاتُ (مونتسكيو) أيضًا إلى اختلافٍ في «القدرة»، وهو ما يمكنُ ربطُهُ - كما أُشيرَ أعلاه - بحقيقةِ أنَّ تصويرَهُ لنمطِ الحكمِ الشَّرقيّ يُعَدُّ مثالاً على الاستشراق. فالنّقاشُ ذاتُهُ عن مدى توافقِ العربِ معَ الدّيمقراطيَّة، بغضِّ النَّظرِ عن نتيجتِه، ينطوي على نظرةٍ جوهريَّةٍ ومتمركزةٍ عرقيًّا؛ لأنَّه لا يأخذُ بالاعتبارِ الأوضاعَ الفرديَّةَ أو الخصوصيَّاتِ المحلّيَّةَ، بل يتناولُ «الثَّقافةَ» بشكلٍ عامٍّ ومجرَّد.

---

1 - McCants Doran:"The Good and Bad of Ahrar al-Sham", Foreign Affairs–Snapshot, January 23. https://www.foreignaffairs.com/articles/syria/2014-01-23/good-and-bad-ahrar-al-sham

2 - Montesquieu:" 1773, The Spirit of Laws. 5th ed", Vol. 1, 90

لقد نقلنا هذه الفقرة المترجمة عن الترجمة التي قام بها عادل زُعيتر للمجلد الأول (روح الشرائع) لمونتسكيو في القاهرة، عن دار المعارف، عام ١٩٥٣م، ص ٩٨. (المترجم).

فيما يتعلَّقُ بوجهة النَّظر هذه، هناكَ جانبٌ مهمٌّ للغاية يجبُ مراعاتُهُ عندَ التَّفكير بشكلٍ خاصٍّ فيما يُسمَّى «الثَّورةُ المضادَّةُ» وتقديمُها باعتبارِهَا تشكّلُ عنصرَ «مفاجأة». فالتَّعريفُ نفسُهُ لهُ دلالةٌ سلبيَّةٌ في وجهةِ النَّظرِ الغربيَّة. غيرَ أنَّ واقعَ عدمِ سعيِ الأحزابِ الإسلاميَّةِ إلى الدّيمقراطيَّةِ باعتبارها قيمةً عُليا ليسَ أمرًا مفاجئًا ولا سلبيًّا، إلَّا إذا جرى النَّظرُ إليهِ من منظورٍ استشراقيٍّ، يُرَى في الدّيمقراطيَّةِ الغربيَّةِ «غايةُ التَّاريخِ» والقيمةُ العُليا التي ينبغي أنْ تسودَ العالَمَ بأسرِه. والتَّجربةُ تُظهرُ أنَّهُ منَ المرجَّحِ أنَّ غالبيَّةَ شعوبِ الدُّولِ العربيَّة، حينَ تتاحُ لها فرصةَ التَّعبيرِ عن نفسِها، تختارُ الأحزابَ الإسلاميَّةَ لتوليّ الحكم. مضافًا إلى أنَّ الأحزابَ الإسلاميَّةَ لا تعتبرُ الدّيمقراطيَّةَ قيمةً، بحسبِ الدّينِ الإسلاميّ، الذي هو أساسُ الفكرِ السّياسيّ الإسلاميّ، فإنَّ الدّيمقراطيَّةَ، أكثرُ منْ كونهَا غايةً في حدِّ ذاتِها، تبدو وسيلةً لتحقيقِ غايةٍ أُخرى تتحدَّدُ وفقًا لمقاربةٍ دينيَّة. هذا لا يعني أنَّ الشعوبَ المسلمةَ أو العربيَّةَ، بشكلٍ عامّ، «غيرُ متوافقة» معَ الدّيمقراطيَّةِ، أو أنَّ الدّيمقراطيَّةَ مستبعدةٌ مسبقًا منْ أُفُقِها السّياسيّ، بلْ إنَّ الدّيمقراطيَّةَ، منْ منظورٍ دينيّ صرف، لا تُعتبرُ قيمةً عُليا يجبُ تحقيقُها. وينبغي أَخذُ هذا الاختلافِ بالاعتبارِ عندَ اتّخاذِ قرارٍ بشأنِ دعمِ الجماعاتِ الإسلاميَّةِ، التي لا تمُثّلُ مجرَّدَ مجموعاتٍ أو أحزابٍ تضمُّ أفرادًا مسلمينَ، بلْ هي كياناتٌ تقومُ سياساتُها وقيمُهَا على مبادئَ وأُسسٍ مستمَدَّةٍ مباشرةً من الدّينِ الإسلاميّ.

خاتمة

أظهرتْ هذهِ القراءةُ الموجَزةُ للسّماتِ الرَّئيسةِ وللبنيةِ السرديَّةِ المرتبطةِ «بالرَّبيعِ العربيّ» أنَّها مرتبطةٌ بعددٍ منَ الصُّورِ النَّمطيَّةِ الاستشراقيَّةِ البارزةِ؛ إذ يبدو أنَّ هذهِ السرديَّةَ تقومُ، إلى حدّ كبير، على فكرةٍ مفادُها أنَّ العالَمَ العربيَّ بأسرِه قد وصلَ أخيرًا إلى «الحداثة»، وعلى تقسيمٍ زمنيٍّ يُميّزُ بينَ «مرحلةِ ما قبل» (أي: الاستبداد، وعدمِ الكفاءة، والجمود، والتَّصحُّر)، و«مرحلةِ ما بعد» (أي: مرحلةِ الدّيمقراطيَّة، والكفاءة، والتَّنمية، والثَّروة/الرَّخاء). وتُعتبَرُ الدّيمقراطيَّةُ عنصرًا أساسًا في هذا التصوُّر، رغمَ صعوبةِ التَّوفيقِ بينَ الأحداثِ والادّعاءِ بأنَّ تلكَ الأحداثَ نابعةٌ منْ روحٍ ديمقراطيَّةٍ أصيلة.

يظهرُ هذا المسحُ الموجَزُ للسّماتِ الرَّئيسةِ، وكذا بنيةِ المرويَّةِ المتعلّقةِ بـ«الرَّبيعِ العربيّ» أنَّها

مرتبطةٌ ببعضِ الصُّورِ النَّمطيَّةِ الاستشراقيَّةِ المُهمَّة. يبدو أنَّ هذه المرويَّةَ تستندُ، إلى حدٍّ كبير، إلى فكرةِ أنَّ العالَمَ العربيَّ ككلّ يصلُ «أخيراً» إلى «الحداثة»؛ كما أنَّها قائمةٌ على التَّمييزِ بينَ «ما قبل» (أي: الاستبداد، وعدمِ الكفاءة، والجمود، والتَّصحُّر)، و«ما بعد» (أي: الدّيمقراطيَّة، والكفاءة، والتَّنمية، والثَّروة). الدّيمقراطيَّةُ جزءٌ رئيسٌ في هذا المنظور، على الرَّغم من صعوبةِ التَّوفيقِ بينَ الأحداثِ وفكرةِ أنَّ تلكَ الأحداثَ نتجتْ عن روحٍ ديمقراطيَّة. يعتبرُ الارتباطُ الوثيقُ بينَ تلكَ النَّظرةِ إلى «الرَّبيعِ العربيّ» والاستشراقُ مسألةً غايةً في الأهميَّةِ لسببينِ اثنينِ على الأقلّ:

١. كما أوضحَ (سعيدٌ) وأكَّدَ عليه، ترتبطُ الصُّورُ والأفكارُ الاستشراقيَّةُ بسياقٍ مرتبطٍ بالمصالحِ الإقتصاديَّةِ والاستراتيجيَّةِ المحدَّدةِ والملموسة، وعلاقاتِ القوَّة/السُّلطةِ بينَ الثَّقافاتِ المهيمنةِ والثَّقافاتِ التَّابعة (subaltern). لذلكَ، فإنَّ هذه القراءةَ والتَّأملاتِ في استمرارِ الاستشراق، توضّحَ أيضًا أنَّ الظُّروفَ والشروطَ التي تشكّلُ أساسَ المقاربةِ والنَّهجِ الاستشراقيّ ما تزالُ قائمةً. ما تزالُ الدُّولُ العربيَّةُ تتمتَّعُ بأهميَّةٍ اقتصاديَّةٍ وسياسيَّةٍ استراتيجيَّة، غيرَ أنَّها تظلُّ «تابعةً». إنَّ كونَ هذه المرويَّةِ تخصُّ أيضًا «الشَّرقيينَ»، ليسَ بالأمرِ الحاسم؛ لأنَّ مواطني الدُّولِ العربيَّةِ لن يكونوا أبدًا هم الفاعلينَ والمحرّكينَ الرَّئيسينَ، ما دامَ هناكَ منْ يقرّرُ منَ الخارجِ، وفقًا لمصالحِه الخارجيَّةِ الخاصَّة، دعمَ نضالاتهم وأهدافهم أو محاربَتَهَا.

٢. إنَّ تأثيرَ الاستشراقِ في سرديَّةِ «الرَّبيعِ العربيّ» يُقوّضُ مصداقيَّتَها. وخلفَ صورةِ الشُّعوبِ العربيَّةِ التي تكافحُ ضدَّ الاستبدادِ ومنْ أجلِ الدّيمقراطيَّة، هناكَ أساسٌ أكثرُ واقعيَّةً وبساطةً، يتكوَّنُ منْ صراعاتٍ وحروبٍ تُخاضُ - في الغالبِ - بينَ جماعات، معظَمُها إسلاميَّةٌ، وأحيانًا حتَّى منْ طرفٍ أجانبَ (حتَّى قبلَ صعودِ داعشَ)، الذينَ يهدفونَ إلى الحصولِ على السُّلطةِ واقتناصِها بدعمٍ منَ الغرب. في ظلّ الإطارِ الاستشراقيّ، لا يُعتَبَرُ هذا الدَّعمُ «عَرَضيًّا»، وليسَ إيثارًا نابعًا من نوايا خيريَّة؛ لأنَّ الاستشراقَ يُعتَبَرُ تعبيراً ثقافيًّا وأيديولوجيًّا للإمبرياليَّة. وعلى العكسِ منْ ذلكَ، تَعتَقِدُ غالبيةُ الرَّأيِ العامّ الغربيّ أنَّهم يساندونَ الحركاتِ الدّيمقراطيَّةَ التي تتألَّفُ من أشخاصٍ غيرِ مسلَّحينَ (على الرَّغم من أنَّهم - في بعضِ الأحيان - يُجبَرونَ على القتالِ من أجلِ الدّفاع) ضدَّ الطُّغاة «الشَّرقيينَ». في الأنظمةِ الدّيمقراطيَّة، منْ الضَّروريّ أن يكونَ المواطنونَ على درايةٍ بما يحدثُ بالفعل، قبلَ أن يُطلبَ منهمُ الاصطفافُ (سواءً منَ النَّاحيةِ الخُلُقيَّةِ أم الاقتصاديَّةِ أم حتَّى العسكريَّة) معَ مجموعةٍ أو دولةٍ أجنبيَّة. ولكنْ، كما حاولتُ أنْ أوضّحَ سابقًا، فإنَّ الصُّورَ النَّمطيَّةَ

الاستشراقيَّةَ تُهيمنُ على الرّواياتِ والتَّعليقاتِ المتعلّقةِ بالأحداثِ، ما يجعلُ من الصُّعوبةِ بمكانٍ، إدراكَ الوضعِ الحاليّ، وإدراكَ الصَّيروراتِ والمصالحِ المتداخلةِ، والحُكمِ عليها وتقويمَهَا بدّقةٍ. ولذلكَ، هناكَ مشكلةٌ كبيرةٌ تتعلَّقُ بالدّيمقراطيَّةِ الغربيَّةِ، ويجبُ التَّعاملُ معها بشكلٍ عاجلٍ. وعلاوةً على ذلكَ، وهذا هو الأهمُّ، هناكَ خطرٌ حقيقيٌّ يتمثَّلُ في أنَّه عندما ندركُ في الغربِ ما يحدثُ بالفعلِ في العالَمِ العربيّ، سيكونُ الوقتُ قد فاتَ؛ سنكونُ قد ساهمنا - بالفعلِ - في انهيارِ منطقةٍ بأكملِهَا، وتحويلِهَا إلى كابوسٍ سيكونُ منَ الصَّعبِ جدًّا الاستيقاظُ مِنْهُ.

لائحة المصادر والمراجع:

- Abdelali, A. (2013). "Wave of Change in the Arab World and Chances for a Transition to Democracy." Contemporary Arab Affairs 6: 198–210.
- Anderson, L. (2011). "Demystifying the Arab Spring: Parsing the Differences between Tunisia, Egypt, and Libya." Foreign Affairs, May/June. http://www.foreignaffairs.com/articles/67693/lisaanderson/demystifying-the-arab-spring.
- Anquetil-Duperron, A.-H. (1778) Législation orientale. Amsterdam: Marc-Michel Rey.
- Arshad, S. (2012) "The Arab Spring: What did it do for Women?" Arches Quarterly 6 (10): 110–115.
- Bayat, A. (2011). "The Post-Islamist Revolutions: What the Revolts in the Arab World Mean." Foreign Affairs – Snapshot, April 26.
- Bradley, J. R. (2012) After the Arab Spring: How Islamists Hijacked the Middle East Revolts. New York: Palgrave Macmillan.
- Chardin, J. (1686). Journal de voyage du chevalier Chardin en Perse. London: Pitt.
- Clinton, Hillary. (2011). "Remarks at the Gala Dinner Celebrating the US–Islamic World Forum: Brooking Institution, Washington, DC, April 12, 2011." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next, 467–479.New York: Council on Foreign Relations.
- Comunello, F., and G. Anzera. (2012). "Will the Revolution be Tweeted? A Conceptual Framework for Understanding the Social Media and the Arab Spring." Islam and Christian–Muslim Relations 23: 453–470.

- De Châtel, F. (2014) "The Role of Drought and Climate Change in the Syrian Uprising: Untangling the Triggers of the Revolution." Middle Eastern Studies 50: 521–535.
- Doran, M., W. McCants, and C. Watts. (2014) "The Good and Bad of Ahrar al-Sham." Foreign Affairs –Snapshot, January 23. https://www.foreignaffairs.com/articles/syria/201423-01-/good-and-bad-ahrar-al-sham.
- Goldberg, J. (2014) "Hillary Clinton: 'Failure' to Help Syrian Rebels Led to the Rise of ISIS." The Atlantic– Interview, August 10. http://www.theatlantic.com/international/archive/201408//hillary-clinton-failureto-help-syrian-rebels-led-to-the-rise-of-isis/375832.
- Goldstone, Jack A. (2011) "Understanding the Revolutions of 2011: Weakness and Resilience in Middle Eastern Autocracies." In The New Arab Revolt: What Happened, What It Means, and What Comes Next, 329–343. New York: Council on Foreign Relations.
- https://www.foreignaffairs.com/articles/north-africa/201126-04-/post-islamist-revolutions.
- Kaiser, T. (2000) "The Evil Empire? The Debate on Turkish Despotism in Eighteenth-Century French Political Culture." Journal of Modern History 72: 6–34.
- McMurray, David, and Amanda Ufheil-Somers. (2013) "Introduction." In The Arab Revolts: Dispatches on Militant Democracy in the Middle East, edited by David McMurray and Amanda Ufheil-Somers, 1–11. Bloomington: Indiana University Press.
- Montesquieu. [1985] 1773. The Spirit of Laws. 5th ed. Translated by T. Nugent. London: Nourse and Vaillant.

- Rosefsky Wickham, Carrie. (2011) "The Muslim Brotherhood After Mubarak: What the Brotherhood is and How it will Shape the Future." In The New Arab Revolt: What Happened, What it Means, and What Comes Next, 91–97. New York: Council on Foreign Relations.
- Rycaut, P. (1668). The Present State of the Ottoman Empire. London: J. Starkey and H. Brome.
- Said, E. (1975). "Shattered Myths." In Middle East Crucible: Studies on the Arab–Israeli War of October1973, edited by Naseer H. Aruri, 408–447. Wilmette: Medina University Press.
- Said, E. (1978) 2003. Orientalism. London: Penguin.
- Sawani, Y. M. (2012) "The 'End of Pan-Arabism' Revisited: Reflections on the Arab Spring." Contemporary Arab Affairs 5: 382–397.
- Tavernier, J. B. (1676). Les Six voyages qu'il a fait en Turquie, en Perse et aux Indes. Paris: Clouzier et Barbin.
- Venturi, F. (1963). "Oriental Despotism." Journal of the History of Ideas24 (1):133–142.
- Voltaire. (1756) 1963. Essai sur les moeurs et l'esprit des nations et sur les principaux faits de l'histoire depuis Charlemagne jusqu'à Louis XIII. Vol. 16 of the Œuvres complètes de Voltaire. Paris: Garnier Frères.